مروج النهضة الراقية...

أ.سميرة بيطام

جمل لي مجلسي بفنيات الراحة الفكرية حينما تداعب أناملي قلمي لأني في اشتياق و تلهف لأكتب حديثا عن النهضة، لست من دعاة الكلام وإنما أميل إلى ما طاب و جاد من الحديث المنظم، في بداية لي بتعريف مختصر للنهضة..

يرى الدكتور محمد العبدة أن جذور النهضة تمتد في تاريخ المسلمين الحديث إلى دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب (١١١٥- ١٢٠٦هـ/ ١٧٠٣-١٧٩١م) على أنها تنطلق من قلب الجزيرة العربية لتلبي مطلب التغيير والإصلاح، وهو الرجوع إلى صفاء الإسلام والأخذ به على أوله وأصله، و البعد عن البدع والشرك الذي يشل التفكير ويجعل الإنسان خاضعا ذليلا لإنسان مثله، بل خاضعا حتى للأشياء مثل الحجر والشجر[١].

جميل أن يكون جذور الشيء الذي سأكتب فيه يمتد للمسلمين ما يدفعني للشعور بنشوة الافتخار أن الانطلاقة كانت من هناك.. ولا يمنع هذا أن أستقي معنى النهضة من قاموس اللغة العربية الممتازة، فجمع الكلمة نهضات، و النهضة هي الطاقة أو الوثبة لأجل التقدم الاجتماعي و غيره، و أن نقول باعث النهضة بمعنى أول الدعاة إليها، ومجمل الكلمة تعني الانبعاث، التجدد، التقدم بعد التأخر.

ولكن ما هي أسباب التأخير أو ماهو الدافع للتجديد لتكون هناك ضرورة للنهضة؟ و هل لسلوك البشر سبب مباشرة في الركود؟..

عن علي رضي الله عنه قال: قد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا، و الشر إلا إقبالا، و الشيطان في هلاك الناس إلا طمعا، فهذا أوان قويت عدته، و عمت مكيدته، و أمكنت فريسته ،أضرب بطرفك حيث

---

(١) د.محمد العبدة: دروب النهضة،مركز الرسالة للدراسات ،القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٢م،ص١٢.

شئت، فهل تنظر إلا فقيرا يكابد فقرا، أو غنيا بدل نعمة الله كفرا، أو بخيلا اتخذ البخل بحق الله وفرا، أو متمردا كأن بسمعه عن سمع الواعظين وفرا، أين خياركم وصلحاؤكم، وأين أحراركم وسمحاؤكم، وأين المتورعون في مكاسبهم، والمتنزهون في مذاهبهم ؟ أليس قد ظعنوا[١] جميعا عن هذه الدنيا الدنية، والعاجلة المنغصة، وهل خلفتم إلا في حثالة[٢] لا تلتقي بذمهم الشفتان، استصغارا لقدرهم، و ذهابا عن ذكرهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ظهر الفساد فلا منكر مغير، و لا زاجر مزدجر، أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه، و تكونوا أعز أوليائه عنده، هيهات لا يخدع الله عن جنته، و لا تنال مرضاته إلا بطاعته[٣].

يبدو من قول علي رضي الله عنه بعض الجواب الشافي عن أسئلتي السابقة، في أن الفساد هو اعم العوامل الدافعة بالأمم إلى الركود و العودة للوراء، والإنسان هو المسؤول عن الفساد مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١].

وبما أن الفساد هو مدعاة لسخط الله وغضبه، فحتما ستؤول الأمور إلى نواقضها، فان كان فيه تقدم و ازدهار سيؤول الأمر حتما إلى تدهور وانحطاط و إن ساد الأمن و السلم بلادا ما ثم تغلغل فيها الفساد حتما ستسود الفوضى و الحروب و شتات الضمائر و تيه العقول، في مراد مكمن الخلاص أين هو، و لن يكون فيه خلاص و نجاة إلا بالعودة إلى الله، وهذه العودة تتطلب تغييرا نابعا من ذات كل فرد بدرء للمفاسد من خلال إتباع أوامر الله والابتعاد عن نواهيه، و يكتمل نصاب التفقه في إرسالية الرغبة في التحضر من جديد إلى ضرورة إحداث نهضة واضحة الأبعاد و مدروسة المنهج، و لا يتأتى

---

(١) ظعنوا :ارتحلوا.

(٢) حثالة الشيء: بقيته الرديئة، وحثالة الناس هم الأنذال اللؤماء.

(٣) أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ربيع الأبرار و نصوص الأخبار،مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، بيروت، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦.

ذلك إلا بالرغبة الأكيدة و القاطعة في توحد الكلمة و تمازج النوايا في النهوض من جديد بصرح البلاد و بناء قواعد متينة و جديدة تكفل للبناء ارتفاعا أكيدا في الثوابت و الدوافع، فلا نهضة ناجحة إن لم يتوفر عنصر التغيير الأكيد في بواطن الفساد ليعم الخير والرزق والنجاح والتشييد للصرح المتين بحضارة تكفلها سواعد مؤمنة أن ما كان منطلقه الوضوح والمباشرة أقرب لإحداث نهضة حقيقية لا يشوبها لا تخبط فكري ولا تذبذب حضاري؛ لأن متانة الرأي من جادة الصواب في القرار، وفي مجيء الإسلام هو الصورة الرسالية المثلى بمحتوى إحداث نهضة صريحة لكسر تماثيل التعبد التي لا تسمع ولا تتكلم ولا تغني من جوع لدعوة الناس إلى الله الواحد الأحد بفكر متوازن و أسلوب مهذب و سماحة سلسة في العقل والروح، وهي مقومات الشخصية الناجحة والتي توفرت في شخص الرسول الكريم ﷺ.

يبقى أن الرسوخ في معرفة أن التوفيق بيد الله أمر حتمي لا غبار عليه، لنفهم جيدا عوامل نجاح النهضة، فالاستراتيجة المدروسة جيدا والموارد البشرية المفعمة بالطاقة والحيوية والآليات الفاعلة لا تكفي بل ليست هي وحدها من يحقق النهضة بمفهومها الحقيقي والجذري، فهي أسباب يجري تعطيلها أحيانا بإرادة من الله ليعرف الإنسان أن نجاح أموره بيد الله، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وإذا عول الإنسان على هذه الأسباب في أنها ستؤدي للنجاح بعيدا عن مشيئة الله، فهنا نوع من الشرك، والأصل في ذلك هو اتخاذ الأسباب مع التوكل على الله، و هذا أمر جامع متكرر عبر قرون خلت ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

يبدو أن معالم النهضة أصبحت أكثر وضوحا عبر مروج من صفاء و طهر ونقاء، فالتفكير السليم والمرجعية الصحيحة من الكتاب والسنة هي التي تأتي بالنتائج السليمة والمرجوة وفق برنامج ومخطط النهضة، وبقدر توفر الإرادة الفولاذية في إحداث التغيير يتحقق المراد والهدف المطلوب، وقد ورد ذكر كلمة الإرادة في القرآن الكريم على نحو ١٤٠ موضع مترجمة في شكل الفعل

والعمل، وهذا ما يزيدنا يقينا أن نجاح عملية النهضة مرهون بمثابرة في العمل والجد والكد في تحصيل المرغوب فيه بصيغة الحلال بما تضبطه الضوابط الشرعية التي تؤطر مجال النهضة لتصنع منها آلية منتجة ومحققة للآمال والطموحات، واستحضر قول حسان بن ثابت:

و ما الدين إلا أن تقام شرائع   وتؤمن سبل بيننا وهضاب

فأساس الالتزام بالدين هو اللبنة الأساسية للنهضة ومن غير هذه اللبنة لا تصلح باقي اللبنات في أن تتراص بعضها فوق بعض، لأن قوامة الدين هي ما يجمع ويؤلف بين اللبنات الأخرى كالاجتهاد والعمل على مراجعة نقاط الخلل والضعف أن ما طرأ إشكال في منهجية النهضة أو في سلوك من سلوك أفرادها قد لا يحقق المطلب الشرعي منها وهو إحداث تغيير جذري في الأساس والهياكل المجتمعية والاقتصادية والسياسية وإعادة التشييد على وتيرة ونسق جديد فيه التجديد والحداثة لمواكبة مستلزمات التحضر دون الإخلال بمبادئ الشريعة الإسلامية..

كانت توضيحات و شروحات عبر مروج النهضة .. و يا حبذا لو تتحقق بحذافيرها لتصبح راقية على الشكل الذي يجذب الإعجاب و يحقق الرضى في نفوس من حملوا على أكتافهم آفاق النهضة وحققوها بدءا بأنفسهم وانتهاء في مجتمعهم، بل في كل من ناشد النهضة وحققها وعاش في كنفها.. و هو منى كل شعوب العالم لترتقي و تسمو فوق منغصات العيش وأسباب التخلف والجهل ... بما يكفل نعيما في العيش و طمأنينة في الحياة.

